

الدرس الثالث والخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل : «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرتُ له وأحببتُ عملك»)) رواه مسلم. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن القائل رجلاً عابداً ، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته» .

قال المصنف الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((باب ما جاء في الإقسام على الله)) ؛ الإقسام على الله : هو التألي على الله سبحانه وتعالى ، مثل ما سيأتي في لفظ الحديث قال ((من ذا الذي يتألى علي)) ، ومعنى يتألى على الله: أي يحلف على الله ويقسم على الله تبارك وتعالى .

والحلف على الله والقسم عليه تبارك وتعالى على نوعين :

■ والنوع الأول من هذين النوعين هو الذي عقد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة لبيانها ؛ وهو: الإقسام على الله تبارك وتعالى من باب الحجر والحظر عجباً في النفس وغروراً من العبد بنفسه وعبادته ومكانته وشأنه ، وهذا من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى ، لأن هذا الإدلال على الله عز وجل من سوء الأدب ، والذي يولّده في الإنسان عجبه بنفسه ورؤيته لنفسه ، فيبلغ به العجب ورؤية النفس إلى هذا الإدلال الذي هو من سوء الأدب مع الله عز وجل بأن يقول: " والله لا يغفر الله لفلان " ، أو يقول "والله لا يدخل الله فلان الجنة أبداً" ، أو نحو ذلك من الكلمات التي فيها هذه الجرأة المتولدة من العجب الناشئة أيضاً من قلة أدب الإنسان مع ربه تبارك وتعالى ، وهذا مما يتنافى مع التوحيد .

ولأجل ذا أورد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه التوحيد ، لأن الإقسام على الله تبارك وتعالى بهذه الطريقة مما يتنافى مع توحيد العبد الواجب لرب العالمين سبحانه وتعالى ، وقد جاء في بعض الروايات للحديث وهي الرواية التي أشار إليها حديث أبي هريرة أن الله سبحانه وتعالى يقول يوم القيامة لهذا المتألي على الله:

((أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي؟.. اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ)) ، وهذا هو المراد هنا بهذا النوع من القسم على الله تبارك وتعالى الذي هو تألي على الله عز وجل في رحمته التي يختص بها جل وعلا بما من شاء جل في علاه من عباده ، فإذا قال قائل "والله لا يغفر الله لفلان" ، أو "والله لا يدخل الله فلاناً الجنة" من هو هذا حتى يقول ذلك في شأن الرب العظيم!! الذي يتصرف في ملكه يشاء وفي عباده كيف يشاء هدايةً أو إضلالاً ، إيماناً أو كفرًا ، يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، الأمر أمره وإليه مرجع الأمر سبحانه وتعالى ، فهذا التألي على الله الذي هو من باب الإدلال الناشئ عن عجب النفس هذا من سوء الأدب مع الله سبحانه وهو منافٍ للتوحيد الواجب .

■ والنوع الثاني من القسم على الله سبحانه وتعالى : القسم الذي منشؤه حُسن التعبُد وحسن الظن بالله سبحانه وتعالى وحسن الثقة به والتوكل عليه جل وعلا ، ويندرج تحت هذا ما جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ)) ، فهذا قسمٌ على الله تبارك وتعالى لكنه نوعٌ آخر غير النوع الذي تحدث عنه المصنف رحمه الله تعالى في هذه الترجمة ، هذا نوع آخر منشؤه حسن الظن بالله سبحانه ، أما الأول فإن منشأه العجب بالنفس ، عجب المرء بنفسه ورؤيته لنفسه ثم يقسم هذا القسم الذي هو تألي على الله سبحانه وتعالى في رحمته التي يختص بها جل وعلا من شاء من عباده .
الحاصل أن الإقسام على الله سبحانه وتعالى على وجه الحظر أو الحجر لرحمة الله التي يختص بها سبحانه وتعالى هذا أمرٌ منافٍ للتوحيد الواجب ، ومنشؤه كما قدمت العجب بالنفس وغرور الشخص بما عنده من عبادة أو ما عنده من عمل ؛ فتصدر منه هذه المقالة المنافية للتوحيد .

وهذا أيضاً في الوقت نفسه يبين لنا خطورة الكلمة ، لأن كلمةً واحدة قد توبق المرء في دنياه وأخراه وتهلكه هلكةً عظيمة ، وهذا يستوجب على الإنسان أن يصون لسانه وأن يحفظ منطقه ، وأن يحذر من زلل اللسان فإن خطورته عظيمة وضرره بالغ .

قال رحمه الله تعالى : ((عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال رجل: «والله لا يغفر الله لفلان»)) ؛ «والله لا يغفر الله لفلان» هذا قسم ، تألي على الله ، في أمرٍ يتعلق برحمة الله التي يختص بها جل في علاه من شاء من عباده ، وكم من أناس اشتد كفرهم وضلالهم ووهب لهم سبحانه وتعالى هدايةً ، حتى بعضهم في آخر أعمارهم وهب الله سبحانه وتعالى لهم هدايةً ومنَّ عليهم بالإيمان وشرح صدورهم للإسلام ، وكم من أشخاص يظن فيهم بعض الناس أن مثلهم بعيد عن الهداية ويمنُّ الله سبحانه وتعالى عليهم بالهداية وربما كانت هدايته خيراً ممن كان يظن به أنه لا يهتدي ؛ الأمر لله سبحانه وتعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، الأمر أمره والهداية هبة ربانية ومنَّة إلهية يمن بها جل في علاه على من شاء من عباده .

فقول القائل «والله لا يغفر الله لفلان» هذه جرأة فيها سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى ، وهذا من باب الإدلال ، الإدلال يكون من الشخص عندما يُعجب بنفسه وبعمله ويرى أن لكلمته نفوذها فيقول مثل هذا الكلام أو يصدر منه مثل هذا الكلام .

فالشاهد أن هذا سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى ؛ قال «والله لا يغفر الله لفلان» ، مثلها "والله لا يرحم الله فلان" ، أو "والله لا يدخله الجنة" ، أو ما أدى إلى هذا المعنى ؛ فهذا كله من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى المنافي للتوحيد الواجب .

((فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟)) يتألى عليّ : أي يحلف عليّ أن لا أغفر لفلان ، وهذا كما عرفنا هذا التألي فيه تحجير للرحمة ، فيه حظر للرحمة مثل ما أشرت في رواية للحديث أن الله عز وجل يقول لهذا المتألي ((أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي؟)) ، فهذا الحلف منشؤه العجب والغرور متعلقًا بالرحمة ؛ لارحمة الله سبحانه وتعالى التي اختص بها يهبها سبحانه وتعالى من يشاء .

قال : ((إني قد غفرت له وأحببت عملك)) فيه كما قال المصنف رحمه الله في المسائل : أن الرجل قد يُغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه ؛ سبحانه الله !! أن الرجل يُغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه ، كل إنسان يكره مهما كانت معصيته أن يُحلف في حقه هذا الحلف "والله لا يغفر الله لفلان" ، أو والله لا يرحم الله فلان ، أو والله لا يدخل فلان الجنة" هذا أمر كربه للنفس لكنه سبب لمغفرة الله له ، وسبب لرحمة الله سبحانه وتعالى له .

قال : ((إني قد غفرت له وأحببت عملك)) وهذا فيه خطورة الكلمة وأن المرء قد يقول الكلمة لا يلقي لها بالاً تهوي به في النار سبعين خريفاً ، ((وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا خَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)) . فالكلمة خطيرة جداً .

ولعلنا نقف وقفةً ثم نواصل مع كلمة لابن القيم رحمه الله تعالى من كتابه «الجواب الكافي» في خطورة الكلمة ولا سيما عندما تنبعث من الشخص في حال عُجبه بنفسه وغروره بعمله .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : [ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه !! حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب! وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفرى في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول! وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل: مَنْ ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له، وأحببتُ عملك)). فهذا العابد الذي قد عَبَدَ الله ما شاء أن يعبدَه أحببت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ، ثم قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته». وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ((إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم)). وعند مسلم : ((إنَّ العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها، يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)). وعند الترمذي من حديث بلال بن الحارث المزني عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((إنَّ أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإنَّ أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه)). وكان علقة رحمه الله يقول: «كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث».

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : ((وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته)) ؛ هذا الحديث الذي أشار إليه رحمه الله تعالى حديث أبي هريرة جاء في بعض رواياته كما عند البغوي في شرح السنة وغيره ؛ قال عكرمة رحمه الله تعالى مولى ابن عباس رضي الله عنهما : «دَخَلْتُ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ، فَنَادَانِي شَيْخٌ فَقَالَ: يَا يَمَامِيُّ تَعَالَ ، وَمَا أَعْرِفُهُ ، فَقَالَ: لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ "وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، وَلَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ" ، قُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ يَزِيحُكَ اللَّهُ؟ قَالَ: أَبُو هُرَيْرَةَ ، قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِبَعْضِ أَهْلِهِ إِذَا غَضِبَ، أَوْ لِرِجَالِهِ، أَوْ لِحَادِمِهِ، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِنَّ رَجُلَيْنِ كَانَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَحَابَّيْنِ أَحَدُهُمَا يُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْآخَرُ مُذْنِبٌ، فَجَعَلَ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعِبَادَةِ كُلَّمَا لَقِيَ الْمُسْرِفَ فِي الذُّنُوبِ يَقُولُ لَهُ : أَقْصِرْ أَقْصِرْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ -أَي كَفِ ودع هذه الذنوب- قَالَ: فَيَقُولُ: خَلِّني وَرَبِّي، قَالَ: حَتَّى وَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّني وَرَبِّي، أُبْعِثْ عَلَيْنَا رَقِيبًا؟ -وهذه الكلمة ربما أن بعض المسرفين يقول مثل هذا؛ لست حسيبا علي لست رقيبا علي- فَقَالَ ذَلِكَ الْعَابِدُ : "وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، وَلَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا" ، قَالَ: فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْظُرَ عَلَى عَبْدِي رَحْمَتِي؟ فَقَالَ: لَا يَا رَبِّ، قَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ » . وهذا هو الذي يشير إليه الشيخ رحمه الله تعالى بقوله أن القائل رجل عابد ، لأنه جاء في الحديث مجتهد في العبادة ، وقال ذلك سخطاً عندما كرر عليه النصح أقصر أقصر يكررها عليه مرات ولا يستجيب غضب منه وقال هذه الكلمة "وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا، وَلَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا" . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ -أي واحدة- أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ» ، وما من شك أن هذا يدل على خطورة الكلمة ولا سيما فيما يتعلق بالرب وعظمته وصفاته وتدييره لخلق سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: التحذير من التألي على الله.

والتألي على الله: هو الحلف على الله سبحانه وتعالى ، وعرفنا أن الذي يحذّر منه هو الحلف على الله سبحانه وتعالى على وجه الخطر أو الحجر لرحمة الله سبحانه وتعالى عُجبا بالنفس وغرورا ؛ فهذا من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى ومما يتنافى مع التوحيد الواجب .

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

يشير رحمه الله تعالى إلى أن هذا الشخص مع اجتهاده في العبادة كلمة واحدة أوصلته النار ، فالنار قريبة من الإنسان ، وليس بين من كان من أهل النار ودخول النار إلا أن يموت .

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

أن الجنة مثل ذلك؛ أي قريبة ممن هو من أهلها ليس بينه وبين الجنة إلا أن يموت . «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً دَخَلَ النَّارَ» هذا يدل على قرب النار .

الرابعة: فيه شاهد لقوله: ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة)) إلى آخره.

فيه شاهد لقوله صلى الله عليه وسلم : ((إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار سبعين خريفاً)) ، والشاهد في الحديث لقول النبي صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليتكلم بالكلمة» ظاهر .

الخامسة: أن الرجل قد يُغفر له بسببٍ هو من أكره الأمور إليه.

والشاهد لذلك في الحديث: أن الرجل الذي قيل في حقه "والله لا يغفر الله لفلان" يكره أن يقال في حقه ذلك ، وهذا من أكره الأمور إليه أن يقال "والله لا يغفر الله له ، أو لا يُدخله الله الجنة" ؛ فغفر الله سبحانه وتعالى بسبب ذلك الذي قيل في حقه .

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ لا يُستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله تُهَكَتِ الأنفس، وجاع العيال، وهلك الأموال، فاستسقى لنا ربك فإننا نستشفع بالله عليك ، وبك على الله»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ((سبحان الله ، سبحان الله!)) ؛ فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه.

ثم قال : ((ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يُستشفع بالله على أحد)) وذكر الحديث . رواه أبو داود.

قال رحمه الله تعالى: ((بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ)) ؛ وهذا أيضا كالذي قبله من جهة أن فيه سوء أدب مع الله سبحانه وتعالى ، لأن مقام الله عز وجل أعلى وأجلّ من أن يُستشفع به على خلقه ، لأن الأمر بيده جل وعلا ، الأمر كله بيد الله هو المعطي المانع ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، المعز المذل ، الذي بيده أزمّة الأمور ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] ، فالاستشفاع بالله على خلقه بأن يقال "اشفع لنا يا رب عند فلان" ، أو "نستشفع بك يا رب عند فلان" أو نحو ذلك هذا كله من سوء الأدب مع الله تبارك وتعالى ، وفيه هضمٌ لمقام الربوبية وعظمة الرب سبحانه وتعالى وجلاله وكماله وأن الأمر بيده . والاستشفاع يكون من الأدنى للأعلى ، أما العلي المتعال الكبير العظيم الذي بيده الأمور سبحانه وتعالى فشأنه أجل وأعظم من ذلك . ولما كان هذا الاستشفاع بالله على خلقه فيه هضم لمقام الربوبية ، وفيه نقص أيضا في توحيد العبد لله سبحانه وتعالى أورد المصنف رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه التوحيد لمنافاة هذا الاستشفاع بالله على خلقه للتوحيد الواجب .

وأورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: ((جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله تُهَكَّتْ الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال)) أي بسبب القحط والجذب ، تُهَكَّتْ الأنفس: أي أجهدت وبلغها من الشدة والنصب ما بلغها ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال: أي الماشية والدواب .

((فاستسق لنا ربك)) أي سل الله سبحانه وتعالى أن يسقينا ؛ وهذا أمر لا محذور فيه ، ((فاستسق لنا ربك)) ذكر الحاجة وطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يستسقي الرب العظيم الذي بيده الأمر .

((فإننا نستشفع بالله عليك، وبك على الله)) ؛ الاستشفاع به على الله بأن يُطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يستسقي لهم هذا أمر لا محذور فيه ، الاستشفاع بالحي الحاضر الصالح المعروف باستقامته وديانته لا محذور فيه ، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يستشفعون بالنبي عليه الصلاة والسلام في حياته بدعائه أن يستسقي لهم ، ولما توفي عليه الصلاة والسلام لم يفعلوا شيئا من ذلك ، ولهذا لما حصل الجذب في زمن عمر رضي الله عنه طلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : «اللهم أنا كنا نتوسل إليك بنبينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا» ثم طلب من العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عن العباس وعن الصحابة أجمعين طلب منه أن يتقدم ليستسقي بهم . فالاستشفاع وطلب الدعاء من الرجل الصالح الحاضر الحي هذا أمر لا محذور فيه .

لكن الرجل لما قال «فإنا نستشفع بالله عليك» قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((سبحان الله، سبحان الله)) وهذه كلمة تنزيه لله سبحانه وتعالى ، تسبيح الله: أي تنزيه الله وتقديسه عما لا يليق به سبحانه وتعالى . وهذه المقولة التي قالها هذا الرجل لا تليق بالله ، لا يليق أن يقال "نستشفع بالله على خلقه" ؛ فالله أعظم من ذلك وأجل سبحانه وتعالى ، لأن الأمر بيده ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] .

((فقال سبحان الله سبحان الله فما زال يسبح)) فما زال يكرر هذه الكلمة تنزيهاً لله سبحانه وتعالى . وهذا يؤخذ منه : أن من السنة الاتيان بهذه الكلمة العظيمة التي هي من الكلمات الأربع هي أحب الكلام إلى الله سبحانه وتعالى عند كل قول أو فعل فيه انتقاص لمقام الربوبية أو مقام العظمة لله سبحانه وتعالى ، كالقول في صفاته بلا علم ، أو كتشبيهه تبارك وتعالى في شيء من صفاته بخلقه ، أو نسبة شيء له لا يليق بجلاله وكماله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ، وقال عز وجل: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢] . فهي كلمة تنزيه يؤتى بها في مثل هذه المقامات .

فلما قال الرجل كلاماً ينزه الرب عنه ويقدّس جل شأنه قال النبي عليه الصلاة والسلام ((سبحان الله سبحان الله)) ((وما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه)) أي: روي أثر ذلك الغضب الذي كان من النبي عليه الصلاة والسلام لهذه المقولة التي قالها ذلك الأعرجي في وجوه أصحاب النبي الكريم رضي الله عنهم وأرضاهم . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((ويحك)) وهي كلمة ردع وزجر .

((ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)) ؛ «إن شأن الله أعظم من ذلك» شأن الله عز وجل أعظم من ذلك لأن الأمر كله بيد الله ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] مُلْكُ الله سبحانه وتعالى ، هؤلاء الشفعاء مهما كانت مكانتهم فإنما يشفعون عند الله بإذن الله لأن الملك كله لله بما في ذلكم الشفاعة ؛ فكيف يقال في حق الرب العظيم المدبر الذي بيده ملكوت السماوات والأرض والعباد كلهم طوع تدييره وتسخييره كيف يقال فيمن هذا شأنه "نستشفع بك عند أحد من عباد الله سبحانه وتعالى" ؟! قال : ((إن شأن الله أعظم من ذلك)) أي أجَلَ من أن يقال ذلك "إنا نستشفع بالله على خلقه" .

قال: ((شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه وذكر الحديث ، رواه أبو داود)) ومن أهل العلم من له كلام في إسناد الحديث ، وشيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله يقوي هذا الحديث ، وكذلك ابن القيم رحمه الله يحسّن هذا الحديث .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل؛ الأولى: إنكاره على من قال: "نستشفع بالله عليك".

لأن الرجل قال عدة كلمات ؛ قال: «استسق لنا ربك» وهذه لا شيء فيها ، وقال: «نستشفع بك على الله» وهذه أيضا لا شيء فيها ، وقال : «نستشفع بالله عليك» فأنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قوله «نستشفع بالله عليك» أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال : ((الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)) .

أيضا يستفاد منها : عندما يتضمن قول قائل جملة خاطئة وكلامه كله لا شيء فيه وإنما جملة خاطئة تعين الكلمة الخاطئة ويبين فسادها بعينها ، فهذا الرجل قال كلامًا كثيرا ، الخطأ في كلمة واحدة فعينها النبي صلى الله عليه وسلم وظهر منه الغضب عليه الصلاة والسلام والإنكار لذلك ثم عين الكلمة قال ((شأن الله أعظم من ذلك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)).

الثانية: تغييره تغيراً عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

قال رحمه الله تعالى : «تغييره تغيراً عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة» وهذا فيه أن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام إنما يغضب عندما تُنتهك حرمة الله ، ما غضب لنفسه قط ، وإذا انتهكت حرمة الله سبحانه وتعالى لم يقم لغضبه شيء .

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: "نستشفع بك على الله".

أنه لم ينكر عليه قوله: "نستشفع بك على الله" ؛ لأن قوله «نستشفع بك على الله» هذا طلب شفاعته منه عليه الصلاة والسلام في حياته ، وكما عرفنا الاستشفاع الذي هو طلب الدعاء من الحي الحاضر الصالح أمرٌ لا شيء فيه ، والصحابة كانوا في حياة النبي عليه الصلاة والسلام يطلبون منه ذلك ، وأما بعد وفاته لم يُنقل عن أحد منهم أنه فعل شيئا من ذلك .

الرابعة: التنبيه على تفسير "سبحان الله".

أي أن هذه الكلمة كلمة تنزيه وتقديس لله سبحانه وتعالى ، ومن أسماء ربنا سبحانه وتعالى «السبوح» ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» ، وكل من «سبوح» و«قدوس» اسمان لله تبارك وتعالى فيهما التنزيه لله عز وجل ، ومثلهما أيضا «السلام» ، كل هذه من أسماء التنزيه، تنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته جل في علاه . فقوله «سبحان الله» أي أنزه الله وأقدسَه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته .

الخامسة: أن المسلمين يسألونه صلى الله عليه وسلم الاستسقاء.

أن المسلمين أي في حياته صلوات الله وسلامه عليه يسألونه الاستسقاء ؛ ومعنى يسألونه الاستسقاء: يطلبون منه أن يطلب من الله سبحانه وتعالى ، أن يسأل الله ، أن يدعو الله أن يغيثهم ، ومثل هذا تكرر ؛ يطلبون منه عليه الصلاة والسلام أن يستسقي أي يطلب من الله أن يغيثهم . وهذا أمر لا شيء فيه ، طلب الدعاء أو الاستشفاع بالحي الحاضر الصالح هذا أمر لا شيء فيه ، وكانوا في حياته عليه الصلاة والسلام يسألونه الاستسقاء ، أما بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه لم يُنقل إطلاقاً عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك ، بل سمعنا كلمة عمر لما اشتد القحط والجذب في زمانه دعا العباس وقال كلمته المشهورة «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا» ومعنى نتوسل إليك بنينا : أي بدعائه في حياته صلوات الله وسلامه عليه ، «والآن نتوسل إليك بعم بنينا» ثم طلب من العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم .

قال رحمه الله تعالى :

باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسدّه طرق الشرك

عن عبد الله بن الشَّحِير رضي الله عنه أنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا. فقال: ((السيد الله تبارك وتعالى)). قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً. فقال: ((قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان)) رواه أبو داود بسند جيد .

قال رحمه الله تعالى : ((باب ما جاء في حماية المصطفى صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد وسدّه طرق الشرك)) ؛ هذه الترجمة تقدم نظيراً لها عند المصنف رحمه الله تعالى في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد . والفرق بين هذه الترجمة والتي سبقت : أن التي سبقت تتعلق بالأمور الفعلية ، وهذه تتعلق بالأمور القولية . ونينا عليه الصلاة والسلام حمى حمى التوحيد وسدّ كل ذريعة تفضي إلى الشرك سواء كانت قولية أو فعلية . وما يتعلق بالأمور الفعلية تقدم في الترجمة السابقة ، وما يتعلق بالأمور القولية خصّها بهذه الترجمة رحمه الله تعالى .

وحماية النبي عليه الصلاة والسلام حمى التوحيد وسده لكل ذريعة وطريق يفضي إلى الشرك هذا كله من كمال نصحه وعظيم بيانه صلوات الله وسلامه عليه ، وقد نصح لأئمة تمام النصح فما ترك خيراً إلا دلهم عليه ، ولا شراً إلا حذرهم منه ، وأعظم الشر الشرك بالله عز وجل ؛ فحذّر من الشرك أشد التحذير صلوات الله وسلامه عليه ، ومن تحذيره من الشرك حذّر من كل أمرٍ قولي أو فعلي يفضي بالإنسان إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ومن ذلكم المغالاة في الأقوال ، ولهذا جاء عنه في الحديث وقد مر معنا ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما

أنا عبد ، فقولوا عبد الله (ورسوله)) ؛ لأن مقام التوحيد -توحيد الله سبحانه وتعالى- مقام عظيم هو أعلى المقامات ، وحرص النبي عليه الصلاة والسلام على صيانة هذا المقام مقام التوحيد وحمايته من كل أمر يُخلُّ به ، وسد كل ذريعة أو طريقٍ يفضي إلى الشرك ، كل فعل يفضي إلى الشرك أو قول يفضي إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى سده وحذّر أمته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

قال رحمه الله : ((عن عبد الله بن الشَّخِير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا: أنت سيدنا ، فقال: السيد الله تبارك وتعالى . قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا. فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان)) ؛ هذا الحديث لما قالوا له عليه الصلاة والسلام وخاطبوه بذلك صلى الله عليه وسلم وواجهوه مخاطبةً قائلين «أنت سيدنا» قال : ((إنما السيد الله)) والسيد: هو من كُمل في سؤدده عظمة وعزًا وعلوًا ورفعةً . فقال لهم عليه الصلاة والسلام ((السيد الله)) وهذا يدلنا على أن «السيد» هذا اسم من أسماء الله . قال ((السيد الله تبارك وتعالى)) ، فالسيد هذا من أسماء الله عز وجل ، ومعنى السيد : الذي له السؤدد الكامل وله العظمة في صفاته وجلاله ، وجميع العباد مفتقرون إليه ، وهو سبحانه وتعالى الغني الحميد .

((قلنا وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا)) الطول: هو العطاء والإحسان .

((فقال قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان)) نبههم عليه الصلاة والسلام أن من مداخل الشيطان على الإنسان هذا المدخل ؛ مدخل الغلو في المدح والثناء على من يحب ، وكم يدخل الشيطان على الإنسان من هذا الباب ؛ يغلو في ممدوحه ومن يثني عليه فيعطيه من الصفات ما لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى . أذكر أنني مرّة رأيت مجلة -والكلام هذا قديم في إحدى الدول- فرأيت قصيدة ، في الفهرس كُتِب قصيدة عنوان القصيدة محمد ، ففتحت الصفحة أنظر في هذه القصيدة التي عنوانها محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أول بيت في هذه القصيدة قال ناظمه :

هو الأول والآخر محمد هو الظاهر والباطن محمد

ثم أكمل مدحًا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ونبينا عليه الصلاة والسلام كان إذا أوى إلى فراشه قال : ((اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر)) ، كان يقول ذلك عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه .

فانظروا إلى الغلو عندما يدخل إلى الإنسان كيف أنه يوصله هذا الموصل ، وما دخل الخلل والفساد عند كثير من المتصوفة إلا من هذا الباب ؛باب الغلو ، يكون عندهم محبة لكن هذه المحبة ليست قائمة على هدي النبي الكريم

عليه الصلاة والسلام ولا على سنته ولا على المأثور عنه ، فينشأ عنده مبالغات ومدح للنبي عليه الصلاة والسلام وثناءً عليه فيتوَلَّد من ذلك وصفه بصفات لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى .

وكان عليه الصلاة والسلام يغضب أشد الغضب عند أي بادرة من مثل هذا ؛ لما سمع المرأة الأنصارية التي تقول "وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ" فغضب عليه الصلاة والسلام وقال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) ، غضب لما قالت تلك المرأة "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" فكيف بمن يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب!! وأنه حاضر ناظر!! وأنه لا تخفى عليه خافية!! ويقول في شأنه وشأن أيضا بعض المعظمين أنهم يعلمون ما كان وما سيكون!! وهذا موجود في كتب الغلاة ، إذا كان في شأن امرأة قالت "وفينا رسول الله يعلم ما في غد" ، والله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] ، هذا أمرٌ اختص الله سبحانه وتعالى بعلمه، غضب لما قالت "يعلم في غد" فكيف بمن يدَّعي علمه للغيب وأنه حاضر وناظر وأنه مطلع على الكائنات ويعلم السر وأخفى!!

فالشاهد أن المدح والثناء على المعظم بابٌ خطير ، إذا لم يؤم الإنسان نفسه في هذا الباب بزمام الشرع فإن الأمر ينفلت ويدخل في ضروب من المغالاة الخطيرة التي ربما تصل بالإنسان إلى الشرك بالله ؛ بأن يصف المخلوق من الصفات ما لا يليق إلا بالله سبحانه وتعالى .

الشاهد أن النبي عليه الصلاة والسلام صيانةً للأمة ، وغلقاً لهذا الباب المغالاة القولية ، وحمايةً لحمل التوحيد ، وسدًا للذرائع والطرائق المفضية بالناس إلى الشرك ؛ حذر من استجراء الشيطان واستدراجه واستهوائه للإنسان في هذا الباب بأن يدخل أولاً في مدح لا شيء فيه إلى أن يغالي في المدح والإطراء إلى أن يمدح المعظم عنده بأوصاف لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى فيقع في المحذور .

قال رحمه الله تعالى :

وعن أنس رضي الله عنه أن ناساً قالوا : يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: ((يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمدٌ عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلني الله عز وجل)) رواه النسائي بسند جيد .

وهذا الحديث كالذي قبله وفيه قال النبي عليه الصلاة والسلام : ((ولا يستهوينكم الشيطان)) أي احذروا أن يفتح عليكم الشيطان باب الأهواء في المغالاة القولية بالأشخاص أو بالمعظمين .

قال صلوات الله وسلامه عليه : ((أنا محمد عبد الله ورسوله)) ؛ وهذا نظير قوله في الحديث الآخر ((لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله)) ؛ فهو عليه الصلاة والسلام عبد لا يُعبد ، ورسول لا يكذب بل يطاع ويتبع صلوات الله وسلامه عليه .

وفي ذكر هذين الوصفين العبودية والرسالة سلامة من الغلو والجفاء ، الإفراط والتفريط ؛ ففي وصفه بالعبودية سلامة من الغلو ، فالعبد لا يُعبد ولا يعطى شيء من خصائص الرب سبحانه وتعالى ، وفي وصفه بالرسالة سلامة من الجفاء في حقه عليه الصلاة والسلام ، فالرسول حقه أن يطاع وأن يُتبع ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] فحق الرسول أن يطاع وأن تُمتثل أوامره .

قال : ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلي الله عز وجل)) انظروا هنا إلى مقام المحبة ، والمحبة عندما تكون عند بعض الناس ليست مضبوطة بضابط الشرع تدخل في ضروب من الغلو ، فإذا كان من يفعل ذلك من باب المحبة فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول : ((ما أحب أن ترفعوني فوق منزلي التي أنزلي الله عز وجل)) ، فإذا كانت محبة الإنسان للنبي عليه الصلاة والسلام صادقة لا يفعلن ما لا يحبه عليه الصلاة والسلام وما لا يريد من أمته عليه الصلاة والسلام أن تفعله أو أن تقوله ، وهو عليه الصلاة والسلام الناصح لأمره .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: تحذير الناس من الغلو.

والمراد بالغلو في هذه الترجمة : الغلو القولي ، والترجمة الماضية كان الحديث فيها عن الغلو المتعلق بالأفعال .

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: "أنت سيدنا".

إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن المواجهة بذلك خشيةً على الأمة فقال عليه الصلاة والسلام : ((لا يستجربنكم الشيطان)) وفي الرواية الأخرى قال: ((لا يستهوينكم الشيطان)) ؛ فنَبَّه المصنف رحمه الله تعالى إلى ما ينبغي أن يقوله من قيل له ذلك .

الثالثة: قوله ((لا يستجربنكم الشيطان)) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

قوله عليه الصلاة والسلام : ((لا يستجربنكم الشيطان)) مع أنهم لم يقولوا إلا الحق ؛ انتبه لهذا !! مع أنهم لم يقولوا إلا الحق ، لأنه عليه الصلاة والسلام قال في الحديث الصحيح ((أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ)) ،

والسيادة التي ذكرها عليه الصلاة والسلام هي تقدُّمه على الناس في الفضل والمكانة والمنزلة ، أما السيادة المطلقة فليست إلا لله كما قال عليه الصلاة والسلام ((السيد الله)).

مع أنهم لم يقولوا إلا الحق ونهاهم عن ذلك ؛ فكيف بمن لم يقل إلا باطلا في المغالاة في المدح والإطراء للمعظم ، إذا كان هؤلاء مع أنهم لم يقولوا إلا الحق لكن هذا الباب يُخشى على الإنسان من دخوله من خلاله إلى شيء من المغالاة نهي عليه الصلاة والسلام عن ذلك !! إذا كان قال ((لا يستجربنكم الشيطان)) هؤلاء مع أنهم لم يقولوا إلا الحق فكيف بمن مدح وغلا في المدح؟! كيف يقال في مثل ذلك؟!

الرابعة: قوله: "ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي".

منزلته عليه الصلاة والسلام ذكرها في الحديث قال : ((أنا محمد عبد الله ورسوله)) ؛ فهو عبدٌ لا يُعبد ولا يضاف إليه شيء من خصائص الرب وصفاته ، ورسول لا يكذب بل يطاع ويتبع صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .